الاستشراق الأنثروبولوجي الفرنسي بالجزائر وارتباطاته بالتّنصير

د/ أحمد مسعود سيد علي
قسم التاريخ جامعة المسيلة

الملخّص :

ارتبط تاريخ التنصير في الجزائر إبان فترة الاحتلال ارتباطا عضويا بظاهرة الاستشراق الانتربولوجي، لاعتبارات رئيسية أهمهما أن اغلب رجال الدين المبشرين كانوا محققين للتراث الجزائري القديم والوسيط والحديث،فضلا عن مكتساباتهم المعرفية في الانتربولوجيا التي صبوها في تقسيم حضارة الإنسان الجزائري وفي تصور مستقبله الذهني داخل إطار المسيحية الفرنسية.

من هذا المنظور يتجلى التلازم بين التنصير والاستراق والانتربولوجي ضمن علاقة مترابطة دليلا على تكامل النشاط الاستعماري برمته لإخضاع المجتمع الجزائري وتفسير هويته الحضارية بما يكفل الهيمنة الاستعمارية الفرنسية.

Abstract:

It has been associated with the history of Christianity in Algeria during the occupation organically linked to the phenomenon of Orientalism anthropology, key considerations, the most important of the majority of the clergy missionaries were investigators Heritage Algerian ancient and medieval and modern, in the division of the Algerian human civilization and in the perception of future mental within the framework of Christian French.

From this perspective demonstrated correlation between Christianization and Orientalism and anthropology within the correlation proof of the integrity of the entire colonial activity to subdue the Algerian society and interpretation of cultural identity in order to ensure the French colonial domination

المنارة للاستشارات
raa.com

◄ ماهية التنصير الفرنسي وتاريخيته بالجزائر:

بالعودة إلى ماهية وعلاقة التنصير بالاحتلال الفرنسي للجزائر، من خلال الأطروحات الفرنسية فإن العسكريين لم تكن لديهم النية البتة حينما قادوا الحملة لاحتلال الجزائر لتنصير المجتمع الجزائر حينما كان يرافقهم رجال الدين ،فهؤلاء في نظرهم كانوا مكلفين برعاية المستوطنين الأوربيين وليس التبشير واستعادة المسيحية القديمة وإثارة مشاعر المسلمين،ثم أن الجمهورية الثالثة كانت علمانية بحيث أعلنت عداءها للكنيسة و أقرت نظام فصل الدين عن الدولة،لكن بالعودة إلى بدايات الحملة الأولى على الجزائر وما تضمنته وثائقها فان الشواهد تنفي أطروحة الفرنسيين السابقة ،من بورمون إلى راندون مرورا بكلوزيل وغيرهم فإنهم كانوا يقيمون القداس بعد تحقيق الانتصارات على المقاومات،ويصادرون الأوقاف ويهدمون المساجد ويحولونها إلى كنائس،بداية من دوبوش 1838 الذي حمل معاول هدم أركان الإسلام ومعالمه[1] إلى لافيجري وشارل دي فوكو.

لقد كانت إدارة الاحتلال تتفادى المجاهرة بدعمها حركة التنصير في الجزائر،لكن كل مشاريعها كانت تصب في ذات الاتجاه الذي رسمته الكنيسة وهو نشر التأثير الفرنسي واستعادة الرومنة والمسيحية، وبالتالي تحقيق اندماج عن طريق اللغة والثقافة والقضاء[2]....

ويكفي النظر في جريدة المبشر لسان حال إدارة الاحتلال فإنها كانت تتفادى الحديث عن حملات التبشير التي تقودها الكنيسة ونشاطها في مختلف ربوع الجزائر،سواء في عهد دوبوش آو بافي ولافيجري،فهي لم تكن تتحدث عن نشاط الكنيسة إلا في الحالات القصوى كتلك المتعلقة بحدوث مجاعات فإنها تذكر على سبيل المثال هبات –نبيهم– إحسان مطران الجزائر أي لافيجري للأهالي بالعاصمة بإقامة دور للأيتام وملاجئ تأوي الجياع ،وهي أي المبشر إذ ذكرت ذلك فإنها لم تذكره في حينه، ذلك أن المجاعة كانت قد حدثت سنة1868،أما المبشر فإنها لم تغطي أعمال لافيجري إلا بعد سنة من انقضاء الحادثة بتاريخ 16 ديسمبر1869،تفاديا للمجاهرة بمناصرة التيار التبشيري.

إن الاستشراق كظاهرة عرفانية يشمل الإنسان وثقافته وتاريخه والحيز الجغرافي الذي يعيش فيه ،فهو يعنى بالمسافة الزمنية والمساحة المكانية ونوع إنساني وإنتاجه الثقافي وفكري، كما أن اهتمام المستشرقين لم ينصب في دراستهم على الشرق المعروف جغرافيا بل ركزوا اهتمامهم على ثقافته وتراثه، وبالتالي فان دراستهم شملت الجانب الهوياتي، وهو محور ما استهدفه علم الاستشراق ومصدر العناية والاهتمام، فهدف الاستشراق هو معرفة «الشرق الهوية والتاريخ» المتمثل في الإسلام والمسلمين تحديدا[3].

وعليه فان الاستشراق كان يحمل في طياته بوادر الغزو والصراع الديني والحرب، وهو ما ينطبق على الاستشراق الفرنسي بدرجة رئيسة في المراحل الأولى للفكر الاستشراقي الفرنسي ،ففرنسا تاريخيا التي أوقف قائدها شارل مارتل جيوش المسلمين في «بواتيه»، وفرنسا إمبراطورية شارلمان وحامية الكنيسة الكاثوليكية ومتزعمة الحروب الصليبية.[4]. لا يخلو استشراقها من نزعة الصراع الديني والشعور الفرنسي بالعلاقة التصادمية التاريخية بين الشرق والغرب عامة وبين فرنسا والمسلمين خاصة (منذ أيام شارل مارتل وحفيده شارلمان إلى أيام الإمبراطورية الفرنسية الاستعمارية في العصر الحديث).

كما كان هذا الاستشراق يمثل الخلفية التاريخية والقاعدة الثقافية في الذاكرة الجماعية الفرنسية وعليها

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بني الاستشراق الفرنسي ومنها انطلق، فكان يحمل روح الصراع الديني والعسكري والعدائية التاريخية والزعامة الصليبية.

أما الاستشراق الفرنسي في المرحل المتأخر بداية من العصر الحديث فانه كان يرموا خدمة الثقافة والقيم الفرنسية .

◄ الاستشراق والاستعمار:

لقد ارتبط الاستشراق الفرنسي ارتباطا عضويا بالحركة الاستعمارية الفرنسية ،بحيث راهنت الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية على مستشرقيها ودورهم بقدر ما كانت تراهن على جيوشها.

ففي الحملة على مصر كان لواء العلماء والمفكرين والمترجمين والمستشرقين أحد ألوية نابليون وكان من أشهر من صاحبه فيها كبير مستشرقي عصره وهو سلفستر دوساسي الذي كان صاحب بيان نابليون عام 1806، كما كان صاحب بيان الجيش الفرنسي المعرب الذي وجه للشعب الجزائري أثناء حملة احتلاله عام 1830.

والاستشراق والاستعمار الفرنسيان تحديدا تتمثل وحدتهما في أنهما وليدا سياسة فرنسية واحدة كما قال المستشرق الفرنسي المعاصر جاك بارك (1910– 1995)، «فالاستشراق هو الجناح الفكري للتوسع السياسي، وغياب أحدهما عن الآخر هو بداية تصدع في جدارهما، وهو ضعف لهما ومؤشر لبداية زوالهما».

ويعتبر انعقاد مؤتمر المستشرقين الرابع عشر في الجزائر عام 1905 حلقة من حلقات التكامل والتعاون الإستراتيجي القائم بين الاستشراق والاستعمار الفرنسيين، وفيه حاول الفرنسيون إضفاء طابع «الجزائر الفرنسية» التي كان قد مضى على احتلالها حينذاك أكثر من سبعة عقود[5].

ومن ثم يؤكد المؤلف أن كلا من الاستعمار والاستشراق «غريب عن الشرق دخيل عليه طالب حاجته منه، وأن كليهما يمثل تفوقا غربيا وصيا على الشرق، وأنهما شقيقان أبناء رجل واحد وامرأة واحدة، وتاريخ واحد وجغرافية واحدة ويحملان بعدا روحيا واحدا».

كل منهما بلغ أوج قوته في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الثاني من القرن العشرين ثم بدأت مرحلة تراجعهما متزامنة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية وانتشار موجة التحرر بين بلدان الشرق المستعمرة.

◄ الاستشراق والغزو الثقافي :

من أبرز العوامل التي راهنت عليها فرنسا في الجزائر هو تشجيعها ونشرها اللغة الفرنسية ومحاربتها اللغة العربية، واهتمامها بالعامية ودعمها وتكثيف الحركة الاستيطانية وتفعيلها ثقافيا واجتماعيا بين السكان.

وأصدق من عبر بوضوح وصراحة عن السياسة الثقافية الاستعمارية تجاه الجزائر، الكاتب الفرنسي أوغست برنارد عندما قال «إننا لم نحضر إلى الجزائر لإقرار الأمن، بل لنشر الحضارة واللغة والأفكار الفرنسية.. وليست الجزائر مستعمرة كالهند الصينية.. ولكنها جزء من فرنسا كما كانت أيام روما.. إننا نريد أن نجعل هناك جنسا يندمج فينا عن طريق اللغة والعادات.. وسيتم هذا بعد نشر لغة فيكتور هوغو».

كل ذلك أدى إلى ما سماه المفكر الجزائري مالك بن نبي «ظاهرة الازدواج اللغوي» التي أدت بدورها إلى ازدواج شعبي، وذلك في معرض مقارنته بين الاستعمار الفرنسي في الجزائر والاستعمار البريطاني

المنارة للاستشارات
raa.com

في مصر حيث انتشرت في البلدين ظاهرة الازدواج اللغوي.

ففي مصر انتشرت اللغة الإنجليزية، لكن انتشارها كان محدودا في الجامعة وبين المتعلمين والمثقفين ومجالها بقي محدودا في الميدان الفكري.

أما في الجزائر فكانت سياسة فرنسا لا تقتصر على الميدان الفكري الجامعي والتعليمي فقط وإنما تعدته إلى مجال الحاجات العادية، أي في الشارع والسوق والمقهى وكل المحيط..إلخ.

وبذلك يصبح الازدواج هنا «ازدواجا شعبيا» وهذا ما دفع عبد الله شريط إلى القول إن الاستعمار الفرنسي «خلق في مجتمعنا تمزقا في الثقافة والتفكير والأخلاق وفي الحياة الاجتماعية نفسها».

إن الاستشراق الفرنسي كان أكثر أنواع الاستشراق الغربي تجنيدا للغزو الثقافي و«التبشير» الديني، كما أن فرنسا اعتمدت عليه في جميع جبهات صراعها الرئيسي مع الشرق، سواء الجبهة العسكرية أو الدينية أو الثقافية أو الاقتصادية، ووظفته كحليف رئيسي للتنصير والاستعمار والثقافة الفرنكفونية.

وعليه يمكن القول إن الاستعمار الفرنسي والاستشراق والتنصير والغزو الثقافي والفكري ما هي إلا أصابع يد واحدة امتدت إلى الشرق، وإن صاحب اليد هو الوحيد الذي يتحكم في حركتها ويعرف متى يستعمل أصابعها كلها أو بعضها حسب حاجته لها في الزمان والمكان المناسبين[6].

◄ التوظيف الانتربولوجي من قبل رجال الدين الفرنسيين في سبيل التنصير بالجزائر:

إن الانتربولوجيا هي دراسة تحليلية تشريحية وعلم بالخصائص الثقافية والاجتماعية للكائنات البشرية، وقد قسم هذا العلم إلى فرعين رئيسين:الانتربوبولجيا الجسدية التي تعنى بدراسة التطور البيولوجي والفيزيولوجي للإنسان،والانتربولوجيا الاجتماعية الثقافية التي تهتم بدراسة حياة المجتمعات البشرية ماضيا وحاضرا، وتطور لغاتها ومعتقداتها وطقوسها وشعائرها وتصوراتها للعالم والكون وكذا ممارستها الاجتماعية. .

لقد تطور هذا العلم مع بداية تطور حركة التوسع الاستعماري الأوربي في ق14م، وقد أنتج هذا التوسع حالة من الذهول والانحباس طالت عقول وخيال المستشرقين الأوربيين الذين قلبت لهم حركة الكشوف الجغرافيا الواسعة النطاق مفاهيمهم ومكتسباتهم المعرفية، الخاصة بتصنيف السلالات البشرية و تطور الجنس البشري [7]،ان هذه المفاهيم انقلبت لديهم مع ظهور مجتمعات وحضارات – اثر تتالي حركة الكشوف الجغرافيات وتطور علم السلالات .–ظلت غائبة عن دراسة المستشرقين الأوربيين الذين ظلوا يعتقدون إلى ذالكم الحين أن تطور الأمم والأجناس البشرية مقتصر على الجنس الانجلو سكسوني أو ألا تيني، وعليه فان ظهور هذا النوع من المجتمعات البشرية في آسيا وإفريقيا وأمريكا ألاتينية وحضارتهم البدائية، ولد ذهولا لدى المستشرقين في تصنيف هذا الجزء من العالم ضمن القائمة العامة لبني البشر،وهو الأمر الذي فتح أفاقا خصبة وواعدة على حد سواء للعلماء والمغامرين والسياسيين الاستعماريين ،لإيجاد تصنيفات وقوالب جديدة تخدم كل تيار مشاربه ونزوعه[8].

شهدت إذا المدرسة الانتربولوجية الفرنسية تطورا ملحوظ مع ظهور العالم الاجتماعي اميل دوركايم1858-1917 ثم ماوس، ذلك ان الدراسات الانتربولوجيا الحديثة بدت اهتماماتها تنحو نحو العالم غير الهندو اوربي،أي العالم السامي والتتاري والافريقي البربري الأطلسي. كما شكلت

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

«مدرسة الآداب» التي أسّسها الاستعمار الفرنسي في الجزائر العاصمة سنة 1879، تحت إدارة رينييه باسي، المختبر الرئيسي للفكر الكولونيالي حول المغرب العربي

هكذا، عكف كثيرٌ من الباحثين الفرنسيين على دراسة وبحث القضايا الاجتماعية والثقافية في المغرب، ومنهم عالم الاجتماع إدموند دوتي (1867 – 1926)، الذي جمع بين صفة الباحث الأكاديمي والأداة الاستعمارية المكرّسة لدراسة المغرب والجزائر

ويُعدّ دوتي مؤسّس «أنثروبولوجيا الدين الكولونيالية» في المغرب. كما يُعدّ من أبرز الكتّاب الأجانب الذين اشتغلوا على التعريف بالمغرب العربي في إطار مهام استطلاعية واستعمارية.

حيث قاربت مؤلّفاته ودراساته 12 عملاً،ويبدو ان اعماله الكبرى التي خدمت الاستشراق هي تلك التي أخذت ملمح رحلي، رسم فيها مسار رحلته التي قادته من الدار البيضاء إلى أبواب مرّاكش. تعرف خلالها على قبائل مغربية هي: الشاويّة ودكالة والرحامنة.

كما اطلع و وصف أحوال الناس ومسارات البلاد وتضاريسها ومناخها وتربتها ولغاتها وصفا دقيقا وأخبار االتاريخ والمكوّنات البشرية والتنظيمات الاجتماعية الخاصّة. كما تناول عدداً من العادات والتقاليد الثقافية والرمزية، ذات علاقة باللباس والحلي واللعب. لم يتوقّف عند حدود العادات والتقاليد والظواهر الاجتماعية المعروفة والجارية ، إنّما تقصّى حتى الجزئيات الفيزيولوجية لكل منطقة بشكل منفصل. [9]

لقد كان المستشرقون يتلقون من المؤسسات الرسمية مساعدات جد متواضعة لم تسعفهم في الوصول إلى المخطوطات وحتى وان وصلوا فإنهم كانوا يفتقرون إلى قواعد اللغة والمعاجم،ومع ذلك فان كل مستشرق كان يؤسس لعمله بضنك كبير بتأليف معاجم لمختلف اللغات وعدد كبير من اللهجات، ونسخوا مخطوطات استجلبوها من الشرق،فعلى سبيل المثال كانت غاية الجمعية الأثرية لقسنطينة استغلال البقايا والآثار المنتشرة في الإقليم بدءا من هيمنة القرطاجيين والنوميديين والرومان ثم العرب،وعليه فرضت الآثار نفسها كمعلل رئيسي في تفسير صيرورة التاريخ، وهو الأمر الذي حذا بالمستشرقين الى جمع الآثار الإسلامية لفهم وحل بعض المسائل في حوليات تاريخ الشعوب الإسلامية.

كما ساهمت المنقوشات التي لم تكن إلا عبارة عن بقايا أثار الأمم التي ساد او ذاع صيتها عن بقية الأمم حينذاك،في تطور اهتمام المستشرقين إلى علم المنقوشات وإدخال تعديلات على الدراسات الانتروبولوجيا التي كانوا بصدد انجازها. [10]

لقد شعر المستشرقون بخدمة جليلة قدمها لهم زملاؤهم الفرنسيون بالجزائر حينما اكتشفوا عالم التو ارق او الليبي–نوميدي– ،ذلك أن هؤلاء ظلوا إلى القرن التاسع عشر محافظين رغم الهيمنات المتكررة التي شهدتها المنطقة ظلوا محافظين على اللسانيين القبائلي والترقي، مما ساعد على تضاعف عدد المؤسسات الليبية مع نهاية 1870/1863، مؤسسات بدأت تظهر بظهور نقوش مزدوجة اللغة اللاتينية والليبية عثر عليها قرب عنابة وضواحي القالة وهي نصوص منقوشة بالحرف النوميدي تعود الى القرن الثالث والرابع للميلاد لم تتمكن في نظرهم لا قرطاجة ولا الرومان ولا العرب من بعدهم من اشتثاثها [11].

إن هذه الأعمال هي التي فتحت الأفاق لاحقا بعد أن أرسلها المستشرق ريبو وديباس والجنرال فيدرب إلى أكاديمية النقوش بفرنسا،لقد أحيا المستشرقون بأعمالهم هذه لغات الشعوب القديمة التي لم تترك أثار إلا من خلال نقوشها الكتابية ،ومنه عثروا

المنارة للاستشارات
raa.com

على المصرية القديمة من خلال الهيروغليفية واللغة الفارسية على عهد داريوس القرن السادس للميلاد في المسمارية واللغة البابلية في النقوش الأشورية والفينيقية ...الخ [12]

كان من نتائج هذه الأعمال المتنوعة والمتعمقة في مجال اللغات هو ظهور علم جديد عرف باسم اللسانيات يقوم على مقارنة اللغات سواء ما تعلق بقواعدها ودراسة نصوصها بالنسبة للفترة الحديثة أما العهود القديمة فإنها مكنت من وضع قوانين فسرت شذوذ اللهجات وضبطت تقارب السلالات البشرية وكذا تقاليدها الحضارية[13].

الى غاية سنة 1872 كان المستشرقون الفرنسيون يتساءلون في جلساتهم العلمية عن أي عائلة تنتمي اللغة البربرية؟وكيف يمكن تصنيف أو ترتيب الأصناف المتنوعة من سكان الجزائر والصحراء؟ وما الرابط الذي يمكن إقامته بين تلك العناصر العرقية أو السلالات القديمة والآثار السلتية الكثيرة المكتشفة كثيرا بالجزائر.

إن هذه المهمة ستعكف على تحقيقها المدرسة الانتربولوجية الفرنسية الاستعمارية، عبر الترويج لسلسلة من المفاهيم نذكر منها:

◆مبدأ إفريقيا اللاتينية:

وهي فكرة روج لها منذ البدايات الأولى للاحتلال بغية تبرير الاحتلال الفرنسي للجزائر ومنه عملت على طمس الهوية القومية لهذا الشعب العربي الأمازيغي. وقد حركت فرنسا هذا الوتر ظنا منها أنها ستخدع الجزائريين، وتوهمهم أن أصولهم رومانية لاتينية ، وعليه فإن فرنسا وريثة الإمبراطورية القديمة هي حاضنتهم الطبيعية. لقد كانت منطقة القبائل الكبرى هي المستهدفة بالدرجة الأولى بهذا الشعار، لأن سكانها يتميزون في اللغة والثقافة عن العرب، كما أنها استغلت شعورهم بأنهم أضحوا أقلية في المنطقة، فأخذت تدعوهم إلى الحماية الفرنسية، والاندماج في الوطن الفرنسي كبديل عن الاحتلال (العربي الإسلامي) لبلادهم . هذا التسلل عبر مسألة الهوية والانتماء عمل على الترويج له المستشرقون ومما من شك في ان هدفه كان واضحا هو استمالة الجزائريين لاستبدال الحماية العثمانية بالاحتلال الفرنسي، خاصة بعد أن أصبحت الخلافة العثمانية ضعيفة وغير قادرة على الدفاع عن مناطق نفوذها الشاسعة.[14] وانطلاقا من هذا المبدأ ظهر شعار الجزائر فرنسية الذي حاول الاحتلال تسويقه إلى العالم، وإقناعه به. وترتب عنه حركة استيطانية واسعة، وبناء المدارس الفرنسية في أطوارها المختلفة لتكون الأداة الفعالة في تغيير الطابع الثقافي للشعب الجزائري. وقد ترتب عن ذلك ازدواجية لغوية تجمع لغة فرنسية قوية وأخرى عربية ضعيفة بفعل التضييق على الناس في استعمالها وتشجيع اللغة العامية كلغة منافسة وواسعة الانتشار مما أدى في النهاية إلى «ازدواج شعبي»، وليس لغويا فقط، كان من آثاره أن «خلق في مجتمعنا تمزقا في الثقافة والتفكير والأخلاق وفي الحياة الاجتماعية نفسها».[15]

سار المستشرقون الفرنسيون إذا وفق منهجية صبغت الحركة الاستشراقية العالمية بصفة عامة، انصبّت حول التراث العربي دراسة وجمعا، وانحصرت اهتماماتهم في المجالات التالية

- تتبّع مواقع المخطوطات وجمعها في مراكز بحث جامعية، أو في مكتبات خاصّة.
- ترجمة النصوص الأدبية والتاريخية والجغرافية والعلمية وأمّهات الكتب، ونشرها والتعريف بها.
- وضع المعاجم، والاهتمام باللّسانيات.

وقد لخص المستشرق الفرنسي ((هنري ماسيه)) مجال اهتمامات المستشرقين في الجزائر، فقال: ((إنّ

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المجالات التي عالجها المستشرقون في الجزائر خلال رحلتهم هي: المعاجم، واللّسانيات، والخطوط، والتاريخ والدين، وتحقيق وترجمة النصوص الأدبية والتاريخية والجغرافية والفقهية والعلمية، ثمّ الدراسات الأنثوغرافية والفلكلورية، وأخيرا الكتب المدرسية)). ولتحيق هذه المهام كان من الضروري أن تُوجد الدوائر الاستشراقية مؤسّسات تساهم في تفعيل هذا المسار، وتسهيل تنفيذ مراحله بكلّ دقة، وإن كانت هذه المؤسّسات فَعَّلتْ نشاطها قبل المرحلة الاستعمارية غير أنّها وجدت في الجزائر– مقارنة مع غيرها من البلدان– ميدانا خصبا فسيحا للتطبيق، وقد ذكر المستشرق(م. ش. تايار) في كتابه (الجزائر في الأدب الفرنسي)، أنّ الفرنسيين كانوا في ((جهل مطلق حتى عام 1830م بكلّ ما يتعلق بالجزائر)) وأشار إلى أنّ الأدب الفرنسي استلهم الكثير من البيئة الجزائرية وثقافتها،((وأحصى ما لا يقل عن 228 قطعة بين قصيدة وديوان شعر، و246 رواية ذات قيم أدبية متنوعة بين عام 1830 إلى 1924م، وهذه المجموعة مكرّسة للجزائر فحسب . وأهم المؤسسات والوسائل التي استغلها المستشرقون لخدمة أغراضهم تتمثل فيما يلي:

◆1 – كلّيات الدّراسات الشرقية :

في سنة 1795 تمّ افتتاح الكلية المتخصصة باللّغات الشرقية، بسبب الحاجة الماسّة ((لتمثيل المصالح التجارية والسياسية الفرنسية في كل أسيا وإفريقيا، وتركّز التعليم على اللّغة العربية، والتركية والتتارية القرمية، والفارسية والملاوية، وأنيط كرسي أستاذية اللغة العربية في الكلية المتخصصة سنة 1795 بانتوين إسحاق سلفستر دي سايسي)) وفي سنة 1914م أعيد تسميتها باسم ((المدرسة الوطنية للّغات الشرقية الحية))، ثم تحولت في سنة 1971م إلى ((المعهد الوطني للّغات والحضارات الشرقية.

◆ 2 – الترجمة والدراسات الاجتماعية :

غزو المستعمرات الجديدة يملي بطبيعته على القوى الغازية، الاهتمام بالترجمة وتكوين المترجمين، لفهم ثقافة المستعمَر، والوقوف على تركيبته العقلية والاطلاع على بنيته الاجتماعية، وفرنسا جيّشت لذلك جيلا من المترجمين وهيّأت الكثير من المدارس التعليمية، لتعلم اللّغة العربية على وجه الخصوص ووظّفت كمًّا من العلماء والباحثين، الذين استهوتهم أخبار الاكتشافات التي تمت في بلدان كثيرة. سواء أكانوا من أصل فرنسي أو عربي، ممن ارتضوا خدمة المستعمر[16]، وبعضهم كانوا جنودا مسخّرين لهذه الغاية، ثم حُوّلوا فيما بعد إلى وظائف إدارية أو تعليمية، مثل الطبيب (إيساب دوسال) الذي اشتغل مترجما بالجزائر ما بين سنة 1830م/1836م والمستشرق (دوسلان) الذي عين على رأس تَرَاجِمةِ جيوش إفريقيا، و(بنيامين فانسان) الذي عمل مترجما في الجيش، ثم قاضيا بمحكمة الاستئناف بالجزائر .

لم تقتصر مهامهم على الترجمة فقط بل ساهموا في إعداد التقارير وتحريرها، وعملية المسح الاجتماعي لعادات المنطقة ولغتها ولهجاتها،ووضعوا في ذلك دراسات عديدة. فقد أفنى المستشرق مارسيه حياته في عمل معجم للّغة العربية في شمال غرب إفريقية، ونشره بعنوان (نصوص عربية تكرونية) في ثمانية مجلدات صدرت ما بين سنة 1925م و1961م،وألّف مارسولين بوسيه معجما بعنوان ((معجم علمي فرنسي عربي)) طبع بالجزائر سنة1871م في 746 صفحة وصفه وليم مارسيه في ملاحظاته بقوله ((يمكن اعتباره أهم عمل للمدرسة الاستعرابية الجزائرية القديمة)) ووضع المستشرق مسكريه *Mas-Queray* عدة دراسات اجتماعية لقبائل البربر، من بينها معجما عن لهجة الطوارق، نشره في الجزائر وباريس على هيئة كراسات ما بين سنة 1893م

المنارة للاستشارات
raa.com

إلى سنة 1895م، وله دراسة عن تكوين المدن عند السكان المقيمين في الجزائر، نشرها سنة 1886م بباريس في 326 صفحة. وكتب كلٌّ من بيريه وبوسكيه دراسة عن(عادات الجزائريين ومؤسساتهم ومعتقداتهم) صدر المجلد الأول منها سنة 1939م وكتبت المستشرقة جواشون a.goichon كتابا عن (حياة المرأة في الميزاب) تمّ نشره سنة 1927م

◆3 – الجمعيات الأثرية :

أسّس المستشرقون الفرنسيون عدة جمعيات أثرية كان من بينها:

– الجمعية الفرنسية سنة 1787م لنشر المخطوطات الشرقية، وكان من بين أعمالها نشر كتاب مروج الذهب للمسعودي، ورحلة ابن بطوطة، وجغرافية الإدريسي وسيرة ابن هشام وتفسير البيضاوي وغيرها .

– الجمعية الفرنسية الأسيوية سنة 1822م وهي من أبرز الجمعيات نشاطا، وفي نفس سنة تأسيسها بدأت بنشر ((المجلة الآسيوية.

– ومن بين الجمعيات المحلية التي أنشأها المستشرقون داخل الجزائر نذكر: جمعية قسنطينة للآثار التي نشأت سنة 1852 م وكان من بين أعضائها البارون بواسوني، والمستشرق شاربوني، اهتمت بالدراسات الإسلامية، وتمكنت ((من إصدار تقويم خاص منذ عهد مبكر حولته فيما بعد إلى مجموعة مقتطفات)). وظهرت بعدها بثلاث سنوات بالجزائر العاصمة ((الجمعية التاريخية الجزائرية)) باقتراح من بابريج، وفي مدينة عنابة تأسّست شركة بونة للآثار سنة 1863م، وفي سنة 1878م ظهرت الشركة الجغرافية والأثرية بمدينة وهران.

– ومن بين الجمعيات المكونة في فرنسا جمعية ((الإرسالية العلمية المغربية)) ما بين سنة 1890/1889م، وهي مختصة بتتبع المؤتمرات التبشيرية وتغطية أخبارها، فكان من بين أعمالها تغطية أخبار مؤتمر القاهرة التبشيري ستة 1906م والمؤتمر التبشيري الثاني المنعقد في انجلترا سنة 1910م

◆4 – الاهتمام بالمخطوطات :

عملية جمع المخطوطات والاعتناء بها فهرسةً وترتيبًا إثراءً للمكتبات الخاصّة والعامة، تصدّر اهتمامات الاستشراق الفرنسي بداية من منتصف القرن السابع عشر ميلادي، بأوامر مرسلة من الملك لويس الرابع عشر سنة 1671م إلى القنصليات الفرنسية في جميع البلدان الإسلامية لشراء المخطوطات وتسخير إمكانياتهم لهذه الغاية، وكان للمستشرق أدريان باربريجر السّبق في إنشاء فرع للمخطوطات العربية بمكتبة الجزائر، والتي وصفها وليم ماك غيكين المترجم بالجيش الفرنسي في رسالة بعث بها إلى وزير التربية الفرنسي، جاء فيها: تحتوي مكتبة الجزائر على ما يقارب 700 مخطوط جمعها تقريبا السيد باربريجر وهي ذات أهمية كبيرة سواء من حيث العدد، أما من حيث طبيعة الآثار التي تضمها، تتكون من قسم كبير منها من بقايا مكتبات قسنطينة العامة الملحقة بالمساجد والمبعثرة عند دخول مواطنينا هذه المدينة، فهي تضم عددا كبيرا من الكتب المتعلقة بالدين والفقه الإسلاميين...الآثار العلمية والتاريخية أو الأدبية بها قليلة غير أنها ذات أهمية بالغة.

◆5 – المجلّات المتخصصة:

أنشأت بعض الجرائد لتتبع آثار المخطوطات في العالم العربي ترجمة وتحقيقا، والتعريف بالتراثي العربي والجزائري على وجه الخصوص، فكان من أهمها:

– المجلة الآسيوية: مجلة فصلية تصدر بباريس منذ سنة 1822م، وتصدر مرّة كل شهر، عن

للاستشارات
www.manaraa.com

الجمعية الآسيوية، وهي مختصة في تتبع الآثار العربية والمطبوعات ذات الأهمية العلمية، غطّت بنشاطها كل فروع الاستشراف الفرنسي وغيره، مع نشر تعريفات بالكتب الجديدة دوريا، إضافة إلى ترجمة النصوص ونشرها، وكان لها – بعد سقوط الجزائر في قبضة الاستعمار الفرنسي – حَرَاكًا لا نظير له في نشر التراث الجزائري والتعريف به، ومن أبرز كتّابها الذين أمدّوها بالكثير من الأبحاث والدراسات (المستشرق دوسلان)، حيث غذّاها بمراسلات ومقالات مختلفة عن التراث العربي، من بينها مقالة عن ((المخطوطات العربية في مكتبات الجزائر)) وهي عبارة عن تقرير مرسل إلى وزير التربية الفرنسية بتاريخ 31 جويلية 1843م يقع في 16 صفحة قدم فيه بيانا مفصلا للمخطوطات العربية بالمكتبة الوطنية الجزائرية،مع ملخصات عن محتوياتها.

– المجلة الإفريقية: تعد من أشهر المجلات نشاطا في العهد الاستعماري، انصبّ اهتمامها حول نشر المخطوطات العربية والمحلية والوثائق، ظهر العدد الأول منها سنة 1856م، وكانت تصدر دوريا كل ثلاثة أشهر، ولم تتوقف إلاّ في الحرب العالمية الأولى ثم استأنفت مسيرتها سنة 1918م، .

و ظلت تزخر بالعديد من المقالات والدراسات والوثائق، وخاصة العهد العثماني،كما شاركت في إعداد الكثير من اللقاءات والمؤتمرات التاريخية فهي تُعد معلمة فكرية لما احتوته من مواضيع تخص التراث العربي، وهي ثرية بالدراسات التاريخية الهامة التي تهم الباحث الجزائري بصفة خاصة.

– حولية قسنطينة التاريخية والأثرية سنة 1852م

– نشرة وهران الجغرافية والأثرية سنة 1878م.

– مجلّة الدراسات الإسلامية، نشرة فصلية تصدر كل ثلاثة أشهر، صدر منها عدة مجلدات سنوية، من سنة 1906 إلى 1926م، ثم حلت محلها (مجلة العالم الإسلامي) برئاسة ألفريد لوشاتلييه، حرصت على نشر الأحداث الجارية في أنحاء العالم الإسلامي المعاصر كافة، مع الجزء المهم الذي كانت فرنسا مهتمة به منذ احتلالها الجزائر سنة 1830م حتى استقلال الجزائر سنة 1962م، كما أصدرت نشرة ببليوغرافية تحصي فيها الكتب بترتيب مصنف، مع ملخصات لمحتوياتها، وإلى جانب هذه النشرة التي كانت تُعد أداة الاستشراق الفرنسي في الجزائر، هناك (حوليات معهد الدراسات الشرقية) بجامعة الجزائر والتي بدأت في إصدار أعدادها الأولى بداية من سنة 1934م

◆6 – النشر والتحقيق:

لقد اهتم الفرنسيون بدراسة ونشر وتحقيق الكثير من الكتب العربية، بما فيها المؤلفات الجزائرية،و سخّروا لذلك عدّة مجلات متخصصة، إضافة إلى المطابع التي هُيئت لهذه الأغراض، فكانت تنشر باللغتين العربية والفرنسية، ((فمنذ سنة 1832م، نظم المقتصد المدني جونتي دوبيسي مطبعة بالعربية والفرنسية لطبع الجرائد الرسمية))، وكانت أبرز المطابع على المستوى المحلي مطبعة فونتانا، التي لم تنافسها من حيث وفرة الإنتاج إلاّ المطبعة الثعالبية، بل فسحوا المجال لبعض الجزائريين للعمل في دراسة المخطوطات ونشرها والإسهام في مشاريع بحثية أوسع، وعُينوا للتدريس والقيام بالأبحاث في المؤسسات الغربية،مثل أبو القاسم بن سديرة،الذي عين عضوا في الجمعية الآسيوية بباريس، وكانت له أبحاث كثيرة منها: (مهمة في بلاد القبائل حول اللهجات البربرية وإدماج الأهالي) تقرير كتبه باللغة الفرنسية تحدث فيه عن عادات وتقاليد سكان منطقة جرجرة، نشره مستقلا، ثم نشره سنة 1887م بالجزائر ضمن كتابه (دروس في اللغة القبائلية). وللدكتور محمد بن أبي شنب نصيب وافر في هذا المجال، إذ سنحت له الفرصة باعتبار موقعه كأستاذ بجامعة العاصمة، تحقيق

المنارة للاستشارات
raa.com

بعض كتب التراث، ككتاب البستان في ذكر الأولياء والعلماء من تلمسان لابن مريم 1908م ونزهة الأنظار في علم التاريخ والأخبار للورتيلاني 1908م، وعنوان الدراية للغبريني سنة 1910م، إضافة إلى البحوث التي نشرها في المجلة الإفريقية على وجه الخصوص.

◄ الخاتمة:

ظلّ عمل المدرسة الأنثروبولوجية الفرنسية، مرتكزا بالجزائر على الظواهر الدينية الملحوظة واعترفت منذ البداية أن العديد من تفسيراتها تبدو هشة، لكن الأهم بنظرها تقديمها النسقي المؤقت للمعلومات التي أوردتها. كما أنها اقرت بعدم ملاءمة النظرية الطوطمية لتفسير الحضارة الإسلامية التي تدرسها والتي تعتبرها أكثر تطورا من حضارات أخرى طبقت عليها تلك النظرية. كما تناولت بعد ذلك الفرضية التي سادت في وقتها لدراسة الديانة الإسلامية، التي تركز على التأثيرات وما تمتحه حضارة من أخرى. ويقصد النظرية التطورية التي تبناها تايلور ومرغان وفرايزر . وفرضية البقايا الوثنية التي طرحها إدوار فيسترمارك. غير أنها استدركت عليها بتقديم العلة السوسيولوجية والسيكولوجية للمؤسسات وتطورها منذ القدم، مهما تكن المنطقة التي صدرت عنها.

◄ الهوامش :

1 – ابو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر تالثقافي، ج6،دار الغرب الاسلامي ط:1998،ص107

2 – بقطاش خديجة: الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر،1830/1871،ط1منشورات دحلب الجزائر2007،ص30

3 – ادوارد سعيد:الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق،ت:محمد عدناني،ط1 القاهرة 2006،ص110

4 – بقطاش خديجة:نفس المرجع السابق

5 – شارل روبير آجرون : المجتمع الجزائري في مخبر الإيديولوجية الكولونيالية ، ترجمة وتقديم وتعليق د.محمد العربي ولد خليفة ، الجزائر ، منشورات تالة ، 2002.ص:123

6 – محمد بن حمو : التبشير والاستشراق في الثقافة العربية الإسلامية في الجزائر ، عين شمس ، مصر ، 1989.،ص:253

7 – أنور الجندي : سموم الاستشراق والمستشرقين في العلوم الإسلامية ، الطبعة الثانية ، بيروت ، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع ، 1985 ،ص114

8 - CF. Adel, Faouzi (dir) : La socio-anthroplogie ou comment repenser la méthode(cahier n° 1), Oran, CRASC, 2001.

9 – إدموند دوتي: استعمار من بوّابة الأنثروبولوجيا،مجلة العربي الجديد 2015/10/18

10 - Insanyat n° s 2526- (juillet-décembre 2004) ayant pour thématique : L'Algérie avant et après 1954, Approche historiographique et représentations.

11 – أنور الجندي ، الفكر الإسلامي والثقافة العربية المعاصرة في مواجهة تحديات الاستشراق والتبشير والغزو الثقافي ، (موسوعة العلوم الإسلامية) ، القاهرة ، ، 1988. ص110

12 – محمد محمد الدهان : قوى الشر المتحالفة (الاستشراق، التبشير، الاستعمار)، المنصورة، دار الوفاء 1986.ص 235

13 - : Hassan Remaoun , « Les enquêtes sur la société et recherches empiriques à des fins de gouvernance en Algérie : éléments pour un état des lieux; in Insanyat;n:27 /2005 »

14 – الطيب بن إبراهيم :الاستشراق الفرنسي وتعدد مهامه خاصة في الجزائردار المنابع للنشر والتوزيع، الجزائر2004

15 – نفسه

16 – عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني : أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها : التبشير – الاستشراق – الاستعمار ، دراسة وتحليل وتوجيه – ط 4 – دمشق : دار القلم ، 1405 هـ – 1985 م – ص 50 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com